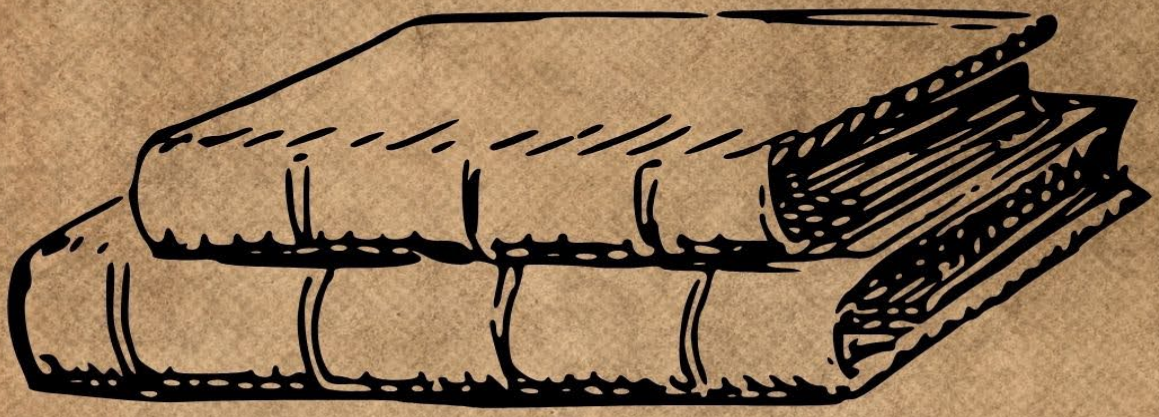

فوائد من تراجم فقهاء المذهب

الشيخ \ أحمد الجوهري

بسم الله الرحمن الرحيم

فوائد من تراجم فقهاء المذهب

ركن أدوّن فيه فوائد من سير أعلام المذهب الشافعي، في القديم والحديث.

أحرص في اختيار هذه الفوائد على أن تحض على الخير كله من علم وعمل، وتكشف عن الفضل كله من النفع القاصر والمتعدي، وتهدي وترشد لخفايا وزوايا، وتقيد فرائد وشوارد، رب يسر وأعن يا كريم.

الشيخ/ أحمد الجوهري

في ترجمة السراج البلقيني رحمه الله تعالى ثلاث فوائد مهمة:

- عناية أبيه به في صغره حيث حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين وحفظ الشاطبية والمحرر للرافعي والكافية الشافية لابن مالك ومختصر ابن الحاجب الأصولي.

ورحل به وحج واستوطن القاهرة من أجله ولقي الكبار بفضل ذلك كله.

- شغل وقته كله، يدرس ويفتي ويصنف، جعل تصنيفه في أول النهار، وفتاويه في آخره بعد العصر إلى الغروب، وتصنيفه فيما بين ذلك وبعده.

وقد درس في عشرات المدارس علومًا متنوعة، وأخرج الآلاف الكثيرة من الفتاوى، ولم يتم أغلب مصنفاته بسبب شغله بذلك.

- انفتاحه على جميع علماء عصره، فتجد في إجازاته ودراساته التلقي عن كل شيوخ عصره رغم ما كان بينهم من المناوشات وخلافات - رحمهم الله أجمعين -.

ذكر **رضي الدين الغزي** في ترجمة **نجم الدين المرجاني** أنه كان وصي أبيهم عليهم، وأنه كان ذا سياسة ومعرفة تامة، وأنه حفظ المنهاج، وسرده عليه على ظهر القلب، فلم يخطئ غير خطأين اثنين.

وذكر أنه كان كثير التلاوة، يقول: "شاهدته في بعض الليالي بالحرم الشريف المكي قرأ نحو النصف بين المغرب والعشاء مع حسن الأداء، ومحاسنه كثيرة".

استدعى **الحافظ العراقي عزالدين ابن جماعة** وهو صغير وحبب إليه الاشتغال بالعلم فأكب عليه ولم يلتفت إلى شيء من الأشياء إلا إليه حتى مهر وتبحر فكان آية.

وعرف بكثرة التدريس، يقول **جمال الدين الطيماني** - وكان ممن يقرأ عليه وسمع دروسه -: "وكانت إذ ذاك نحوًا من خمسين درسًا في اليوم والليلة في دقائق العلوم".

وكان لا يمل من اطراح التكلف وعدم الحرص والتقنع باليسير، ولم يكن يقرأ كتابًا إلا ويكتب عليه حاشية.

وكان - رحمه الله تعالى - يتحرى أن لا يكون إلا على طهارة، ولا يمكن أحدًا عنده من الغيبة مع ما هو فيه من ممازحة الطلبة ومفاكهتهم والتواضع المفرط.

ذكر **الحافظ ابن حجر** أن **الشيخ شمس الدين الغزّاقي** - رحمهما الله تعالى- كان صبورًا على الطلبة، فقصده الطلبة لذلك، حتى صار غالبهم وقتها من طلبته.

ومن عادات السلف - رضوان الله عليهم -: أنهم كانوا يعلمون الدين مجانًا، لم يكونوا يأخذون على التعليم والفتيا وغيرهما أجرة من المتعلم.

نعم منهم من أجري عليه راتب وغيره من بيت مال المسلمين، لكن ما كانوا يطلبون من الناس شيئًا.

ومن كان منهم يأخذ أجرة من الطلاب نصوا على ذلك منهم وعابوا أخذه وشددوا النكير عليه، وأولئك فيهم قلة أو ندرة.

كان الشيخ تاج الدين بن بهادر - رحمه الله تعالى - يجلس للتدريس كل يوم من وقت الضحى إلى قريب الغروب، لا يقوم من مجلسه إلا نادرًا.

ويظل سائر الأسبوع على ذلك، ويخبر عنه طلبته الملازمون له: أنه لم يضبط عليه القيام إلى بيت الخلاء في هذا الوقت، قال الرضي: ولعل السبب في ذلك - والعلم عند الله تعالى - أنه كان يصوم غاية الدهر ولا يأكل إلا ما يسد خلته.

كان الشيخ تاج الدين الغرابيلي كثير الجبر لطلبة العلم القادمين عليه، يضيفهم، ويحن إليهم، مع طلاقة الوجه، وكان له - رحمه الله تعالى- سمت حسن على طريقة أهل الحديث.

ينص رضي الدين الغزي - رحمه الله تعالى - في طبقات الفقهاء الشافعية الذين ترجمهم من كان منهم "أشعري الاعتقاد" ومن كان منهم "على طريقة أهل الحديث".

جمعت من صفات من قال العلماء: إن الله تعالى بارك له في عمره وملأ بالخيرات وقته ونفعه ونفع به الصفات التالية:

- القيام بوظائف العبادات.

- الصبر على الطلاب.

- والتواضع.

- وعدم الكلام فيما لا يعنيه.

- السكينة.

- والدين.

- وعدم الغيبة نطقًا أو سماعًا.

- التميز في طاعة: صيام دهر، كثرة حج وعمرة، كثرة ختم، كثرة ذكر.. إلخ.

- منجمع عن الناس بعيد عن الشر.

- الضبط.

- التأني.

- حسن الأداء.

- ذو سياسة ومعرفة وعقل صحيح.

- اطراح التكلف.

- وعدم الحرص.

- والتقنع باليسير.

- وملازمة الدروس ومتابعتها في الليل والنهار.

- دوام الاشتغال والإشغال.

بقي **الشيخ شمس الدين الأذرعي** يقرأ الصبيان في مسجد بغوطة دمشق ويوم أهلها أكثر من خمسين سنة، ويتردد إلى جامع دمشق في كل جمعة، وكان من الخيرين وعلى طريقة حسنة.

ذكر رضي الدين الغزي أن شهاب الدين الأذرعي له السؤالات المسماة بالحلبيات للشيخ تقي الدين السبكي. قال: وبعض الأسئلة أفحل من الجواب.

وأحصيت مِن أسباب البراعة في العلم الأسباب التالية

- محبة العلم.
- رعاية الوالدين أو أحدهما.
- تحفيز الشيخ.
- وفرة الشيوخ والدروس.
- الذكاء الفطري.
- دوام مراجعة المحفوظ.
- كثرة التحري والتفتيش.
- التصنيف.
- الجمع بين الحفظ والدرس والمذاكرة والتعليم والتصنيف.

كان الشيخ جمال الدين بن ظهيرة إلى جوار علومه وفنونه:

- كثير الأوراد.
- حسن السمت.
- ظاهر الوقار.
- قليل الكلام فيما لا يعنيه.
- حسن السيرة في قضائه.

- ذا حظ من العبادة والخير.

- عظيم النصح للمسلمين وشيوخهم.

وبهذه والله ارتفع القوم، وإنها للتي نفتقد، رب استرنا.

عابوا على **الشمس البرماوي** رحمه الله شدة الاختصار في بعض مصنفاته.

يقول الرضي: **"وجمع كتابًا على البخاري وقفت عليه في القدس وهو حسن بلغني أنه ألفه بمكة في سنة تسع وعشرين في أخريات عمره، لكنه أجحف في اختصاره".**

لا ينبغي لمن يصنف أن يجحف في الاختصار حتى يلغز، ولا يسرف في البسط، وليكن بين ذلك قوامًا.

الحيل في العلم كثيرة، وصاحب العلم الذي يتمتع بالذكاء ينتفع من العلم بما لا ينتفع به من سواه.

لما توجه **شمس الدين البرماوي** إلى الشام وعلم **القاضي نجم الدين ابن حجي** منزلته من العلم وكان قد نوى أن يقيم مدة يسيرة سافر بعدها.. أرسل إليه القاضي يستقدمه هو وأهله وجماعته، وأكرمه غاية الإكرام، وأنزله في بيته، وسعى له في الوظائف.

يقول **الرضي**: "وانتفع به القاضي نجم الدين في العلوم، وكان كثير المذاكرة عنده، ويجمع عندهم بعض الفضلاء، فينتفع القاضي بواسطة ذلك".

حال الشيخ مع الطالب مثل الوالد مع الولد أو أشد، يفرح لما يسره ويحزن لما يضره.

لما علم **السراج البلقيني** أن تلميذه **شمس الدين البرماوي** - رحمهما الله تعالى - ناب في الحكم عن **القاضي بدرالدين ابن أبي البقاء**.. صعب عليه الأمر، لأنه خشي أن يشتغل بالحكم عن العلم.

رحمه الله تعالى فكيف لو رأى زماننا والعلماء تأكل التفاهات أوقاتهم وجهودهم!

من الأمور التي يكثر التأكيد عليها في تراجم أهل العلم: وجود المحفوظات، وتكرارها، والاحتفاظ بها إلى الممات.

كتب كثير من أهل العلم السابقين كتبهم بأيديهم، لم يشتروها ولم يستأجروا الوراقين لكتابتها، وكان هذا من أعظم أسباب التحصيل والانتفاع، فاكتب بيدك كتابًا على الأقل في التفسير.

من الكلمات الآسرة التي ينبغي أن تكون منهج حياة لطالب العلم ما جاء في سيرة **الشيخ جمال الدين الشيبي**..

قال بعض المكيين: "وكان الناس مجمعين على محبته، لا تراه عين إلا قرت برؤيته، ولا تسمع به أذن إلا وأصغت لحسن سيرته".

وكان شكلًا حسنًا، منور الشيبة، عليه أبهة العلم.

وهل يطلب من العلم إلا هذا؟!

من أعظم الصفات التي يوصف بها شيخ من الشيوخ أو معلم:

- حسن الخلق مع الناس.

- ولين الجانب مع الطلاب.

- والإنصاف في البحث مع العلماء.

ومن اجتمعت فيه كلها فقد حاز الفضل بحذافيره.

ضمن **الكمال الدميري** - رحمه الله تعالى - شرحه على المنهاج فوائد كثيرة مستطرفة، خارجة عن الفقه، وله فيه عناية ظاهرة بالدليل والكلام عليه.

واسم شرحه: **"النجم الوهاج في شرح المنهاج"**.

ينبغي لمن يختصر كتابًا أن يعتني بتقريب عبارته ويبتعد عن تعقيدها.

وهذا حق القراء عليه في هذا الكتاب.

وينبغي أن يكون هذا المختصر شاملًا لجميع مقاصد الأصل.

وهذا حق صاحب الكتاب الأصل عليه.

لم يزل الكلام يكثر في أهل العلم قديمًا وحديثًا بسبب دخولهم في الأموال بين الناس والفقراء، فابتعد عنها - يا طالب العلم - ما قدرت على ذلك.

وإن ابتليت بذلك وكانت المفسدة في مجانبتها تربو على المفسدة في مباشرتها فاتخذ الاحتياطات كافة للسلامة منها.

ومن أسباب السلامة: العمل في مجموعة رسمية بطرق معروفة معلنة.

عادة الناس أن لا يقبلوا على كتاب لم يكمل إلا لمصنف شهير وعالم نحرير.

ورغم ذلك كم تركت مصنفات لأئمة كبار وأهملت مع نفاستها بسبب عدم اكتمالها، أعرض الناس - المحققون، والناشرون، والقراء - عنها من أجل نقصها.

فإذا حبب الله تعالى إليك التصنيف فاجتهد في إكمال أعمالك ولا تدعها ناقصة، واعلم أن **كتابًا واحدًا مكتملًا ترعاه خير من عشرة كتب كل واحد منها إلى النصف والربع ونحو ذلك.**

وهذا - بالمناسبة، والشيء بالشيء يذكّر - من مقاصد التأليف وأغراضه المهجورة في زمننا هذا..

أن يتناول الطالب أو الشيخ أحد الكتب السابقة التي لم تكتمل فيشتغل عليه بنفس طريقته ومنهجه حتى تتم الفائدة منه.

ومن عمل على ذلك رجوت أن ينفعه الله تعالى ببركة هذا العمل المتقدم لنيته في نشر العلم مع نية ذلك الإمام أو العالم.

تشجيع الناس على العودة إلى فكرة الوقف بإنشاء المدارس والكتاتيب وغيرها من الأمور المهمة في زمننا هذا..

لقد بات الدرس الشرعي في المدارس والمعاهد الرسمية باهتًا: قليل الوقت، ضعيف المضمون، يراد له الموت والفناء، وقد كان من الملاحظ في عصورنا السابقة كثرة المدارس الوقفية التي كان لها أثرها العظيم في بناء الأجيال وتخريج العلماء.

كان **الفيروزابادي** صاحب القاموس كثير الكتب جدًّا ولا يسافر إلا وهي معه في عدة أحمال ويفتحها في غالب المنازل ويطالع فيها، وقد من الله تعالى علينا في هذا الزمان بتيسير ذلك كله بحيث أصبح لأحدنا من الكتب أضعاف أضعاف كتب **الفيروزابادي** وهي خفيفة المحمل والتصفح وغيرها.

لكن.. أين من يفتحها ويطالع فيها؟!

يتلخص الفرق بين طالب وطالب، وشيخ وشيخ، وعالم وعالم، في **الهمة**..

أحدهما صاحب همة عالية تلاصق السحاب والآخر صاحب همة دانية تتمرغ في التراب، وهذا كل شيء.

لا تشغلنك - يا صاحب العلم - فكرة الكراهية التي تتوجه إليك من فريق..

الناس تعادي الجاهل لجهله وتعادي العالم لعلمه، ويبغضون البخيل لبخله ويبغضون الكريم لكرمه، وينظرون إلى المحسن والمسيء كليهما شزرًا.

ولئن حرص صاحب العلم على إرضاء هؤلاء وهؤلاء.. لم يفلح وإن فعل ما فعل، إلا أن يكون من المنافقين.

فخلهم وما يشغلون به أنفسهم وامض في سبيلك واسع إلى أهدافك، واستفد من نقد الناقدين - إن وصل إلى مسامعك - بتصحيح طريقك وتجويد عملك.

من نعم الله على العالم: أن يرزقه الله بولد ذكي - علم العلم مع ذكائه أو لم يعلم، وإن علم فتلك نعمتان مقترنتان-، يعرف قدر العلم ويبذله، ويعلم أن بذله حياته ومنعه مماته.

شرح **الشيخ عماد الدين الحسباني** المنهاج في عشرة أجزاء، ذكروا أنه كانت فيه نقول كثيرة وأبحاث نفيسة، لكنه لم يشتهر.

قالوا: والسبب في ذلك أن ولده الشيخ شهاب الدين لم يمكن أحدًا من كتابته فاحترف في بعض الفتن!

قد يكون الطالب جيد الفهم ولا يكون ماهرًا في العلم، ليس العلم بجودة الفهم، وقد يكون الطالب بليد العقل ويبرع في العلم، ليست بلادة العقل بمانعة أن يبرع الطالب في العلم.

العلم مجموعة من العوامل من جمعها حصله ومن فرط فيها خسره.

نعم يساعد على ذلك التحصيل ويعجل به: جودة الفهم.

يذكرون في تراجم بعض أهل العلم: أنه حفظ وطلب وقرأ، وأفاد وانتقى ونظر، وصنف وذاكر وباحث.. ما ظنك بمن يفعل ذلك.

هل يمكن أن يخرج خالي الوفاض أو يعلق به من العلم شيء قليل؟ كلا، أبى الله أن يضيع أجر من أحسن وأجاد.

وما طلبت هذه الأوصاف إلا في سير في الكبار، وما قرأت سير الكبار إلا وجدتها فيها.

ذكر **الأسنوي العلائي** - رحمهما الله تعالى- فكان مما قال عنه:

"وصنف.. في النظائر الفقهيه كتابًا كبيرًا نفيسًا..".

قال الرضي: ".. وهو المشهور بالقواعد، وهو كتاب نفيس جليل، يدل على فضل كبير واطلاع كثير، وما أطالعه إلا وازداد فيه محبة..".

وكان **شيخنا العلامة محي الدين المصري** يوصينا به وبمطالعته، ويقول:

"إنه ما صنف مثله"، ويذكر ذلك عن الأئمة، والله أعلم".

من العلماء من يفضل قلمه على عبارته، ومنهم من تفضل عبارته على قلمه، ومنهم من جمع الله له الاثنين كأحسن ما يكون.

وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء مع ما يوفق الله إليه العبد من الإقدام والتدريب فيضقل مواهبه ولا يهملها.

من أولى علامات العالم الصادق: ديانته، وأمانته في ولايته وغيرها وعفته ونزاهته في ذلك.

وقيامه في الحق وصلابته فيه لا تأخذه في الله لومة لائم.

من فضل الله تعالى على الولد وتوفيقه للوالد: التبكير بإحضار الولد على المشايخ الأعلام من صغره، وإسماعه من المسندين، ووصله بالحفظ والفهم والقراءة والعلم، وتحبيب طلب ذلك إليه في بلده وبالرحلة في غيرها.

وأن ينشأ صيّنًا دينًا خيّرًا يحب رفقة الخير ويحرص على صحبتهم وينفر من صحبة السوء ويجتنبهم.

كثيرًا ما تقترن هاتان المسألتان في تراجم العلماء العاملين:

"وكان آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، له وقع في النفوس ولكلامه عظمة في القلوب".

وكأن الله تبارك وتعالى مثلما عظم هذا العالم ما بينه وبينه فحفظ حدوده ودعا إلى المحافظة عليها.. عظم الله تعالى ما بينه وبين الخلق فألقى في قلوبهم الهيبة له والتقدير.

ترجم **الرضي الشيخ شهاب الدين بن** نشوان فقال في بعض كلامه عنه: "ولم يكن له محفوظ لكن له تصرف وذكاء فمهر وساد ودرّس وأفتى وتصدق لإقراء الطلبة، وصار من أعيان الشافعية بل من مشايخهم..، واشتهر صيته وباشر الإشغال بقلب وإقبال وقصد بالفتاوى من الأقطار".

فتأمل قوله: "ولم يكن له محفوظ لكن له تصرف وذكاء" وعوّض ما فيك من نقص بما لديك من ميزات ودار سيئاتك بحسناتك وسد خللك بنفسك.

لو استقرأ بعض الأحباب كتابَ عالمٍ فحلٍ في التراجم مثل: الذهبي، ابن حجر، وأمثالهما وجمع منه الصفات الحميدة والمحاسن التي يمدح بها العالم العامل، مثل:

البِشر

والتودد

والمروءة

والصلاح

والتواضع

وحسن السمت

وكثرة الإحسان.

والمواظبة على الأوراد.

وكثرة النوافل.

والسكينة.

والوقار.

ولين الجانب.

ونفع الناس.

والقول بالحق.

والتصدي للظلمة.

والصبر والاحتساب.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والكلام في العلم بتؤدة وسكون.

والإنصاف.

وحسن المحاضرة.

وحسن التقرير.

والصدق.

ومحبة الخلق.

والاتحاد مع العلماء.

والعفاف.

والسيرة الحسنة في الولايات.

واستحضار العلم.

والحفظ.

والتدين.

وانتفاع الطلبة به.

والصبر على طول الاشتغال والإشغال.

وغيرها من الصفات والمحاسن الجميلة.

- وكذا الصفات التي يذم بها، مثل:

التساهل في الدين.

والطمع.

والحسد.

والرشوة.

والركون للظلمة.

والغيبة.

والكبر.

الاستزراء بالناس.

والكلام في الغير مع المبالغة أو الكذب.

والحدة.

والتكسب بالشهادة.

وإثارة العصبية والبغضاء.

وإطلاق اللسان في العلماء.

وغيرها من الصفات السيئة والخصال الذميمة.

ومثل هذا شيء عظيم يجعل منهاجًا يقتدى بما فيه.

صورة من صور التعاون العلمي الصادق:

قال الرضي: "ولما جمع الشيخ ولي الدين [ابن العراقي] النكت المعروفة [على الحاوي والتنبيه والمنهاج] صار بعض الطلبة يقرأ من ذلك على [أبي إسحاق] البيجوري.

فكان [البيجوري] يرد من حفظه أشياء عجيبة ويناقض في أماكن كثيرة.

فكان ذلك الطالب يراجع المؤلف [الولي العراقي] بما يعترض عليه به البيجوري، فيصلح [الولي العراقي] كتابه على وفق ما يقوله البيجوري.

قال الرضي: وبلغني عن البيجوري أنه - لما طالع في النكت المذكورة - قال: "هذا شيء يجب له رجال".

أخبرني بعض أصحابه الفضلاء بذلك.

من أمارات الجد في الطلب ودلائل الوعي وعلامات الهمة والنبوغ:

قال **الحافظ ابن حجر** في ترجمة **برهان الدين السرّائي**:

"وكانت له عناية بالحديث، فقرأ الكثير على مشايخ عصره، وأتقن نسخة كل كتاب كتبه بخطه الحسن المجود، وحشى كل كتاب بفوائد الشيوخ الذين كان يقرأ عليهم".

تارة من أجل كتاب البخاري، وتارة من أجل كتاب عثمان بن سعيد!

ذكر الرضي في (بهجة الناظرين) ترجمة **الشيخ برهان الدين الملكاوي** (ت ٨٠٤ هـ) قال: "وكان له ميل إلى عقيدة ابن تيمية، وأوذي بسبب قراءة كتاب عثمان بن سعيد الدارمي في الرد على الجهمية، لكونه أظهر قراءته، وقرأه على ابن الشرايحي.

فقام عليه الزين الكفيري، وشكاه إلى الباذلي، وأهانه، وأراد ضربه وكشف رأسه، ثم شفع فيه، وحبس ابن الشرايحي".

من علامات الثقات الأثبات:

- كثرة التحري وشدة الضبط.

- والتوثق عند النقل.

- والصدق في القول.

- ومراجعة الشيء ولو أنه من الظاهرات المشهورة.

- وعدم العجلة بالجواب.

ذكر **ناصر الدين ابن الفرات** في ترجمة **الشيخ برهان الدين الأبناسي** أنه كان مربيًا للطلبة.

وأوضح الحافظ ابن حجر - رحمه الله تعالى - جانبًا من هذا بقوله:

"وبنى زاوية بالمقياس ظاهر القاهرة، وأقام بها يحسن إلى الطلبة، ويجمعهم على التفقه، ويرتب لهم ما يأكلون، ويسعى لهم في الرزق.

فصار أكثر الطلبه بالقاهرة من تلامذته، وتخرج به منهم خلق كثير، وكان حسن التعليم، لين الجانب، متواضعًا، بشوشًا، متعبدًا، متقشفًا، مطرح التكلف.

وقد عين مرة للقضاء، فتوارى، وذكر أنه فتح المصحف، فخرج: {قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه}".

ترجم الرضيَّ شيخَه ابنَ قاضي شهبة - رحمهما الله تعالى - بترجمة حافلة في (بهجة الناظرين) وقد أخذ بقلبي قوله عنه:

"وصار في عمره ليس له شغل آخر سوى: تهذيب تصانيفه، وتهذيب تداريسه، مكبًّا على العلم ليلًا ونهارًا، لا سيما الفقه والأصول والتاريخ، من حين نشا الى ان توفي..

إلى أن يقول - رحمه الله تعالى -: ".. مع طلابه معاملته لهم بالخير والمسامحة بكل جميل، والتردد إلى منازلهم في أفراحهم وعزائهم وتشييع جنائزهم وإعادة مرضاهم مع الهمة العالية الأسدية!! ".

من محاسن التعبيرات قول الرضي عن ابن قاضي شهبة في بعض ترجمته: "وقد انفرد في دمشق، لم يبق أحد من مشايخه ولا أقرانه، فصار هو الشافعي بها".

وترجمة ابن قاضي شهبة كلها عجيبة معجبة في العلم والعمل..

ومنها قولهم عنه - رحمه الله تعالى -: ".. صار مكبًّا على الفقه والتاريخ، فلم يزل يكتب فيه إلى أن أسقط القلم من يده، ومات فجأة قبل العصر من نهار الخميس خامس عشر ذي القعدة الحرام سنة (٨٥١ هـ).

الشيخ شهاب الدين الوجيزي (ت ٨١٩ هـ).

حَفظ الوجيزَ للغزالي فعُرف به.

الكلمة التي تتردد في تراجم العلماء المبرزين كثيرًا وأرانا نحتاجها كثيرًا ومع هذا نهملها كثيرًا قولهم عن أحدهم: "وكتب الكثير"، "وعلق وحشى"، "وجمع وصنَّف"، هذه كلها من وسائل التحصيل ولا يلزم من كتابة شيء وتصنيفه طبعه ونشره.

الحدَّة تحرم العالم الخير، فيتجنبه الأقران ويبتعد عنه الطلاب، وهذا في الحقيقة هو رأس مال العالم في الحال والمآل:

- فإن الأقران يذكرونه إذا نسي ويعينونه إذا ذكر ويسددونه عند الصواب ويقومونه عند الخطأ.

- والطلاب هم ذخره وكنزه، وقد حرص على بقاء الذكر من أجل زيادة الأجر الأنبياء والصالحون، قال تعالى: {واجعل لي لسان صدق في الآخرين}، وقال عز من قائل: {واجعلنا للمتقين إمامًا}.

قال الرضي في ترجمة بعض الأفاضل: "وكان الغالب عليه: الحدة، مع الرياضة، والمحاضرة الحسنة في بعض الأحيان، فلأجل ذلك لم يتصدّ للإشغال ولم يبحث عليه أحد من الفضلاء".

من أمارات صدق العالم في نصرة دينه ومحبته الخير له:

- فرحه وإعجابه بانتشار العمل للدين.

- والدعاء للعاملين له بالتوفيق.

- وحض الناس على إعانتهم.

من فضل الله تعالى على الشيخ والطالب: رفق الشيخ.

ومن مظاهر الرفق البالغ التي أثرتها لنا كتب التراجم عن بعض الشيوخ السابقين:

أنه كان يخرج مع الطلبة إلى المتفرجات ويبعثهم على الانبساط واللعب وذلك مع الدين، وقرأت في سيرة شيخ الإسلام زكريا الأنصاري رحمه الله تعالى أنه كان يخرج بالطلاب إلى شاطئ النيل في بعض الأوقات يدرسهم هناك ويسبحون في النهر.

وهذا مما أؤكد على أنه غير موجود أو على الأقل غير معهود في زمننا هذا.

كثير من فقهاء المذهب أولئكم الذين ذكروا في سيرهم أنهم كانوا يحفظون أو يستحضرون **روضة الطالبين للنووي وأصلها للر افعي.**

من سره أن ينجز في هذا الطريق القدر الكبير في الزمن القصير فليكب على الاشتغال، وليدأب في طلب العلم ليلًا ونهارًا، وليدم المطالعة.

من محاسن صفات أهل الهمم: أن تراهم كل يوم في صعود.

ومن كلامهم في تراجم بعضهم: "وكان شابًّا له همة عالية، وسعي وإقدام، ولم يزل في علو في الدنيا إلى أن مات..".

فتنبه لوقتك، واطلب المعالي، ولا تدع عمرك يفوت، واستعمله على الدوام في تحصيل خير من الذي حث الله تعالى عليه ورسوله ﷺ.

من الظواهر المعروفة في تاريخنا: عناية بعض الأئمة والعلماء بكتاب من الكتب، خاصة تلك الكتب المؤسسة أو المعتمدة أو المستوعبة للفنون.

وهو مما ينبغي أن يعود لدائرة الاهتمام، خاصة في زمن ضعف الهمم هذا.

فمن قصرت همته عن الإحاطة بالعلوم أو بعلم منها.. يتخصص في كتاب من الكتب التي على هذه الصفة: يقرؤه ويطالعه، يحله ويشرحه، يقرئه ويسمعه، يحققه ويدققه.

وقد جمعت هنا في مقالة تلك الكتب التي عني السابقون بتكرارها وهي تدلنا على تلك النوعية من الكتب.

ترجم **ابن قاضي شهبة** بعضهم، ثم ذكر مصنفاته فقال في بعض ذلك: ".. وشيئًا على المنهاج لم يشتهر؛ لغلاقة لفظه واختصاره".

من عيوب التصنيف: الإغلاق وشدة الاختصار، ولو كان عصرًا جديرًا أن يبسط لأهله القول ليفهم وتقرب العلوم لتعرف وتسهل لتحب ويقبلوا عليها.. لكان عصرنا هذا، وليت شيوخ العلم في زمننا يعرفون هذا، وليس هذا تزهيدًا في تفرغ طائفة من الشيوخ لتفهيم المختصرات وحل المغلقات وبسط المتون في جميع الفنون.

عناصر صناعة طالب العلم يجمعها هذا النص الكريم الذي يحكي عمل **سراج الدين البلقيني** مع بعض أبنائه:

"ولما رجع والده إلى القاهرة صرف همته إليه حتى مهر في مدة يسيرة، وتقدم، واشتهر بالفعل وقوة الحفظ".

عناصر صناعة طالب العلم يجمعها هذه النصوص الكريمة التي تحكي لنا عمل **سراج الدين البلقيني** مع بعض أبنائه:

- "ولما رجع والده إلى القاهرة صرف همته إليه حتى مهر في مدة يسيرة، وتقدم، واشتهر بالفعل وقوة الحفظ..

- "ودخل مع أبيه أيضًا دمشق.. والعلماء إذ ذاك بالشام كثيرون، فظهر فضله وعلا صيته".

- "وكان والده يعظمه، ويصغي إلى أبحاثه، ويصوب ما يقول".

- "واستمر على الطلب والاجتهاد والإفتاء والتدريس وشغل الطلبة".

الإداريات.. كم قتلت من علوم!

أعرف من أهل زمننا من كان له جهد مشكور في التدريس والتصنيف..

ربما جلس من بعد الفجر إلى قريب من الظهر يدرس مادة بعد مادة.

وقد اشتغل مدة بتدريس رسالة الشافعي يبدأ بها في أول النهار فيأخذ درسًا ثم يتناول هو والطلاب القرآن الكريم كلمة كلمة يستخرجون ما فيها من علم الأصول، وذلك من أول القرآن الكريم بالترتيب.

فلما ولي عمادة الكلية التي كان يدرس فيها شغل عن ذلك، وكانت شروحه على الكتب بعدها لا تتم.

ذكر الرضي في ترجمة الشيخ جلال الدين البلقيني: "وكان قد نقص عما كان عليه قبل ولاية القضاء.

قال مرة: نسيت من العلم بسبب القضاء والأسفار العارضة بسببه ما لو حفظه شخص لصار عالمًا كبيرًا".

وفي هذا فائدة أخرى، وهي: أن ترك الاشتغال والإشغال بالعلم يجعله يذهب وينسى، فإن العلم عزيز لا يبقى عند من يهمله أو يسيء صحبته.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دأب العلماء والصالحين في كل زمان ومكان، لم يزل هذا معروفًا في الأمة لم ينقطع من لدن الصحابة رضوان الله عليهم إلى يومنا هذا، وسيبقى إلى يوم القيامة، فإنه أساس الأمة وأرومتها وعنوان خيريتها.

كان **الشيخ أبو هريرة ابن النقاش** واعظ القاهرة ولي الخطابة بجامع ابن طولون، فكان يصرح في خطبته بذم الظلمة وينكر ما يشاهده أو يسمع به من الوقائع.

وجرت له في ذلك خطوب مع الترك والقبط وهو مع ذلك معظم عندهم، كما ينقل ذلك الحافظ ابن حجر.

قد تطلب شيئًا ويريد الله لك غيره، وقد تراد لشيء ثم تكون لغيره، وقد تؤهل نفسك لشيء ثم لا تكون له وتعمل في غيره.

وليس الشأن فيما تحسنه وتقدر على النفع فيه، إنما الشأن في الباب الذي يفتح لك أن تعمل فيه الذي تحسنه ويؤذن لك أن تعمل ثم تثمر دعوتك فيه.

كان **الشيخ أبو هريرة ابن النقاش** واعظ القاهرة وابن واعظها - رحمهما الله تعالى - من أعلام العلماء في زمانه.

وكان يصلح للتدريس والإفتاء والقضاء وغيرها، وعرض عليه القضاء بالديار المصرية غير مرة فامتنع.

لكن لما غلب عليه الوعظ وحصل للعامة به النفع بقي فيه ولزمه.

وكان من الأئمة الأعلام الخائفين من الله تعالى، الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، لا يشك أحد في خيره ودينه.

وكان رحمه الله تعالى في مواعظه يحط على الظلمة وغيرهم من المفسدين من أهل الشوكة، وانتفع به العامة.

ومثل ذلك ما حصل **للشيخ زين الدين الكردي** رحمه الله تعالى..

فإنه اشتغل بدمشق وقرأ التنبيه وحضر عند بعض مشايخ العصر وتفقه مدة يسيرة، ولم يتبحر في الفقه ولا في غيره، ثم اشتغل بالوعظ وحصل له القبول التام من العامة ما لم يحصل لغيره من طبقته وتميز في ذلك، ووعظ قريب أربعين سنة، وكان من أهل العلم في الجملة وشيخ فنه في وقته.

وسبحان من قسم الأرزاق بين عباده، ووضع كل واحد منهم في محل يناسبه وينفع فيه وينتفع منه.

تعاون علمي مبكر

قال **الرضي** في بهجة الناظرين في ترجمة **الحافظ العراقي**:

"وولع بتخريج أحاديث الإحياء ووافق الزيلعي في تخريجه أحاديث الكشاف وأحاديث الهداية، فكانا يتعاونان".

وأفضل الشيوخ للطالب من رأى في سبيل من السبل خيرًا له فوجهه لسلوكها.

وربما نفع الله بالطالب في هذه السبيل بما لم يكن يظن أو يحسب، وربما كان توجيه الشيخ هذا أفضل له عند الله تعالى من علمه.

كان **الحافظ العراقي** رحمه الله تعالى مفرط الذكاء، فأشار عليه شيخه عز الدين ابن جماعة رحمه الله تعالى بطلب الحديث لما رآه مكبًّا على تحصيله، وعرفه الطريق في ذلك، فطلبه على وجهه.

والحافظ العراقي هو الحافظ العراقي وما نفع الله به وبطلابه وطلاب طلابه معروف مشهور، وأثر مدرسته ممتد إلى وقتنا هذا.

وهذا السبيل سبيل الدنيا والآخرة، من قصد به الآخرة.. نالها، ومن قصد به الدنيا والآخرة.. نالهما، ومن قصد به الدنيا وحدها.. نالها وليس له في الآخرة من نصيب.

وإن من أعظم أمارات الصدق في طلب العلم - بل هو أعظمها -: العمل به.

قال **الحافظ ابن حجر** عن شيخه **العراقي** رحمهما الله تعالى:

"وكان لا يترك قيام الليل، وكان إذا صلى الصبح ذكر الله تعالى في مجلسه حتى تطلع الشمس ويصلي الضحى.

ولم أر في مشايخي أحسن صلاة منه".

فهذه - يا أخي - صفة رجال الآخرة، فلا تغيبن عنك ولا تغب أنت عن طريقهم وصفتهم.

لا تحزن لفوات حظ من الدنيا، مهما يصبك من عوارض الدنيا ودينك سالم فأنت رابح، ولينشرح صدرك وليطمئن قلبك أن النقص أتاك حين أتاك في دنياك وسلم لك دينك.

إذا كثر الظلم بأرض وقدرت على التحول منها إلى أرض عدل فلا تتوان، وإذا لم يمكنك.. فاقعد على كره وبادر بإنكار ما تستطيع.

ليس الزهد الذي يدعونا إليه الإسلام: ترك الدنيا يتملكها الكفرة والظلمة، إنما هو: تملكها والاقتدار عليها بأن تكون في أيدينا لا في قلوبنا، ومن ضعف عن ذلك - بكل ألوان الضعف وأشكاله - فرضي منها بالقليل.. فلا حرج عليه.

لكن لا ينبغي أن يكون هذا عمل الأمة كلها.

من أمارات إخلاص المعلم واقتداره على شيطانه ونفسه وهواه: أن لا يغضب لجلوس طلابه إلى غيره من الشيوخ.

فإن فرح بذلك لهم لحرصهم على الخير وملازمتهم من في مجالستهم نفعهم ثم حضهم على ذلك ورشح لهم من يعرف إجادتهم وإتقانهم وحبب إليهم ملازمتهم.. فهو صاحب قلب سليم.

يعجبني الشيخ يكون في الشرح حسن التقرير والأداء بحيث يفهم قوله البليد، ويقرب بكلامه المعنى البعيد.

من كان في مستوى من التقدم في شرح العلوم بحيث يدرس للمنتهين، فبقي عمره أو معظمه يدرس لمن هم دون هذا فقد أضاع نفسه بذلك.

يأسرني أدب **الحافظ ابن حجر** - رحمه الله تعالى - في تراجم أهل العلم والشيوخ من أساتذته وأقرانه.

إذا أتى على ذكر شيء مما يؤخذ عليهم.. تجده يعمي هذا الشيء أو يشير إليه إشارة سريعة، يقول - مثلًا -: "وبدرت منه هفوة..، ثم تنصل منها واستغفر، والله يعفو عنه".

وهذا مما يتكرر من الحافظ كثيرًا، يلمسه كل من يقرأ في كتبه.

من المحاسن الحميدة والصفات الكريمة التي يحرص العلماء الذين ألفوا في السيَر على ذكرها في تراجم شيوخ الإسلام من الأئمة والعلماء والوعاظ:

النص على أنهم كانوا ينكرون المنكر، سواء في ذلك على أئمة الجور أو عامة الناس.

محبة الشيخ لطلاب العلم رزق عظيم يعود عليهم بفوائد ومنافع عميمة

منها:

انشراح صدره بهم.

وتفانيه في إفهامهم.

وإخلاص النصح لهم.

والحلم والصبر والصفح عن زللهم.

وغير ذلك من الفوائد والعوائد الطيبة.

من المسائل التي رصدتها رصدًا حسنًا في تراجم العلماء: العناية ببيان صفة عمل العالم فيما أسند إليه من ولاية على قضاء أو إفتاء أو غيرهما.

فإن كان قد أحسن.. ذكروا ذلك، أو أساء.. ذكروا ذلك.

ولا يغطي على هذا عندهم كثرة صفات له أخرى غيرها، فإن كان الرجل محسنًا جوادًا خيّرًا لكنه يقبل الرشوة أو يسطو على الأوقاف ونحو ذلك ذكروه بالشر.

وهذا - للأسف - خلاف ما عليه أهل زمننا هذا، وهو قصور فهم وتقدير للأمور.

مهما يكن الشيخ في المنزلة من العبادة فيما بينه وبين ربه تبارك وتعالى: كثير التلاوة، حسن الصلاة، عظيم الأوراد.. إلخ.

ومن العلم فيما بينه وبين طلابه: حسن الأداء، مليح المحاضرة.. إلخ.

ثم إنه يطلق لسانه في الناس ويأتي بالألفاظ الغريبة في ذلك.. فاطرحه فإنه لا خير فيه ولا نفع يرتجى منه.

من بركة الدرس طالب نجيب يسأل، وبحث على إثر ذلك يعمل، وإنما ينتشر العلم بسبب هذا وغيره.

من الفقهاء من حفظ بعض الكتب ودرسها وحلها حتى كأنه أبصر به من الذي صنفها، وربما كان عمله على الكتاب واشتغاله به وإشغاله فيه هو سبب شهرة الكتاب ومعرفة الناس به وإقبالهم عليه.

ومثل ذلك في الأشخاص والمذاهب والآراء.. يكون فضل بعض من أتى بعد أصحابها أكثر وأعظم أثرًا فيها من أصحابها.

من نعم الله تعالى على العبد: شيخ متقن يحبه ويصطفيه:

فيفيده ويعلمه.

ويربيه ويهذبه.

ويرشده ويوجهه.

ويشرف عليه وعلى أعماله في العلم والعمل.

ذكروا في ترجمة **الحافظ نورالدين الهيثمي** أن تخرج **بالحافظ العراقي** ولازمه ملازمة شديدة حتى خلطه بنفسه وزوجه بابنته ولم يكن أحدهما يؤثر على الآخر أحدًا.

قالوا: وقد هذبه الشيخ [العراقي] حتى صنف تصانيف مفيدة.

احترقت مكتبة **سراج الدين ابن الملقن** قبل موته بقليل، وكان منها كتب نفيسة، وسبب ذلك له اختلاطًا في عقله، وقد حجبه ولده **الشيخ نورالدين** عن الناس إلى أن مات.

فلا تدري من أيهما تعجب:

- حزن الوالد البالغ على كتبه إلى هذه الدرجة.

- أم حرص الولد الشديد على مكانة أبيه حتى لا يمحى تاريخه بما قد يقع منه في بقية حياته!

وهما عجيبان.

لا تنشغل بالتأليف عن المذاكرة والتدريس!

نفع الله تبارك وتعالى بمصنفات **ابن الملقن** كثيرًا كثيرًا وبارك الله له وللمسلمين فيها، فقد رغب الناس في تصانيفه لكثرة فوائدها وبسطها وجودة ترتيبها.

لكنها أضرت به بعض الضرر، فقد أقبل عليها وترك ما سواها من: مذاكرة الأقران، وتدريس الطلاب، ونحو ذلك، وكان من أثر هذا - كما يقول **الحافظ ابن حجر** - أنه: كان في أول امره ذكيًّا فطنًا، رأيت خطوط ذلك العصر في طباق السماع تصفه بالحفظ ونحوه من الصفات العلية، ولكن لما رأيناه لم

يكن بالاستحضار ولا في التصرف بذاك، وكأنه لما طال عمره استروح وغلبت عليه الكتابة فوقف ذهنه.

وقال - أيضًا -: "وكانت كتابته أنبل من استحضاره، فلما قدم الشام فاتحوه في كثير من مشكلات تصانيفه فلم يكن له بذلك شعور، ولا أجاب عن شيء منه، فقالوا في حقه: ناسخ كثير الغلط".

من عجائب الدهر: اسم **سراج الدين (ابن الملقن)** هذا، فإنه في الحقيقة: **ابن النحوي**، والملقن هذا زوج أمه!

لكن لما احتضر أبوه وهو صغير.. أوصى به وبأمه إلى أحد أصدقائه، إذ لم يكن لهم أحد في مصر وكان أهلهم جميعهم في بلدهم الأندلس..

وكانت وصيته لصديقه (الملقن) الذي يعمل معه في مسجد عمرو بن العاص: كان والد سراج الدين يدرس، وهذا يلقن..

أوصاه أن يتزوج امرأته من بعده وأن يرعى ولده..

وقد أحسن الملقن القيام على وصية صديقه النحوي أيما إحسان ورعى سراج الدين حتى تخرج في العلم فكان أفضل من ولده وأولاد الناس كلهم..

ولما كان كذلك.. اعتقد الناس أنه ابنه، وقالوا: ابن الملقن!

وكان الملقن وسراج الدين يجتهدان في القول: أيها الناس إنه ابن النحوي وليس ابن الملقن، لكنها كانت قد سبقت وانتشرت وثبتت، فسبحان الله وبحمده!

من أمارات فضل الله تعالى على من يتولى مسؤولية وإرادة الله تعالى به الخير:

أن يعز في ظل مسؤوليته الصادقون ويعلو المستحقون ويشكر المجتهدون ويرتفع الأخبار المتقنون.

أتقن كتابًا من الكتب المعتمدة في الفقه في مذهبك، تعيده دراسة وقراءة وتعود إليه في الفتوى:

قال **الرضي** في بهجة الناظرين في ترجمة **الشيخ تاج الدين ابن الزهري**:

"ويكتب على الفتوى الكتابة الحسنة، وغالب كتابته على الفتوى من مختصر الروضة للأصفوني، كان هذا الكتاب في الغالب عنده يراجع النقل فيه بسلاسة عبارته وحسنها مع الاختصار".

اخل بنفسك وانفعها، ما لم تكن الخلطة أنفع لك أو للناس في دين ودنيا.

وانفرد بالعمل وجوّده، ما لم يكن الأصل فيه الاجتماع بالناس أولى وأفضل.

وأكثر من العمل الخفي.. يحصنك من الرياء، وتأمن به من الحسد.

إذا فتح الله تعالى لك في وقت.. فداوم عليه، أو في حال.. فتلبس به، أو على يدي شيخ.. فالزمه، أو بكتاب.. فأدم النظر فيه وفي فنه وباقي كتب مصنفه ومن نحا نحوه.

من أهل العلم والفضل من كان يشتري حوائجه بنفسه مع كثرة طلبته وأتباعه، ويرى ذلك من طرح التكلف.

ومنهم من كان يمتنع من ذلك ويرسل من يشتري له وربما جعله من باب الورع عن محاباة الناس له.

وهما نظرتان صحيحتان..

والأمور - كما هي القاعدة - بمقاصدها.

الحفظ ينفع صاحبه أيما نفع، ليتنا حفظنا وما استمعنا إلى من زهدنا في نفع الحفظ!

ذكروا في ترجمة **الشيخ علاء الدين بن الصيرفي** أنه كان يأتي على **"الروضة"** سردًا يسرد في الدرس الواحد في القضاء قريب نصف كرّاس ويتكلم عليه ضعفي ذلك.

لا تخطئ العين البصيرة إنصافًا عظيمًا لدى هذه السلسلة المباركة من الأئمة:

- **سراج الدين البلقيني.**

- **زين الدين العراقي.**

- **ابن حجر العسقلاني.**

وربما كلفهم هذا الإنصاف مشقة مخالفة التيار السائد في أزمنتهم ممن كانوا يميلون إلى فريق من علماء المسلمين دون فريق تارة في باب العقيدة وتارة في باب السلوك.

يلزم قارئَ التاريخ مطالعةُ كتبٍ كثيرة معه ليقف على الصورة كاملة التي كان عليها المجتمع المسلم في الفترة التي يقرأ عنها، فإن كتب التاريخ لا تكفي وحدها بحال من الأحوال لهذا الهدف، ومن أهم هذه الكتب: التراجم والسير.

فرق بين من يترجم للعالِم وغيره ترجمة علمية خالصة بمحض الخبر: يسجل ما وصله منها، ويرتبها، ويحللها، وبين من عاشر الأشخاص وعايش الأحداث وذاق طعمها بحلوه ومره، لا ريب أن القراءة للأول أدنى بكثير من القراءة للأخير.

أعجبني في **"بهجة الناظرين"** **للشيخ رضي الدين الغزي** - رحمه الله تعالى - أنه كتاب مختصر اقتصر فيه على المهمات.

ولم يعجبني فيه أشياء، منها: أنه اتكأ على تراجم **الحافظ ابن حجر** - رحمه الله تعالى - كثيرًا وهو عصريه الذي لم يزل حيًّا وقت كتابة سطوره هذه، وقد كان يمكنه أن يشافه بما نقله عنه المعاصرين لأولئك العلماء من الإخوان والطلاب والأبناء، ولو فعل فلن يعدم الظفر بجديد في رحلته تلك.

في كتب التراجم - ومنها **بهجة الناظرين** - روح تسري في قارئها، تشعره بوحدة بلاد الإسلام في تلك العصور الزاهية.

وهو يقرأ أن (فلان) من العلماء كان في الحج وجاور بمكة مدة، ثم وفد على مصر ليسلم على أهله، وربما خرج من مصر بعدها ليتولى الإفتاء في القدس، أو يخرج إلى الشام ليتولى القضاء في إحدى مدنها.

هنا في كتب تراجم فقهاء المذهب يجد الطالب سيرة العالم وكيفية صناعته - المدارس، المناهج، الشيوخ، الكتب والترتيب -.

ويتعرف على رموز المذهب والمؤثرين فيه، والأطوار التي مر بها، والكتب التي كانت مشتهية فيهم ليقارن بينها وبين ما يدرسه، وشيئا من طرائقهم في الدراسة والتدريس والمذاكرة والتصنيف.. إلخ.

وينبغي ألا يخلي طالب العلم مدة من مطالعة كتاب من هذه الكتب، وكتابة فوائد منها، وتدوين خواطر على هوامشها.

فهي ترفع الهمم، وتثبت القدم، وتنير طريق العلم والعمل.

برز دور المرأة في الحياة الفقهية واضحًا في عهود الإسلام الأولى.

وذلك مثل: أمنا عائشة وغيرها - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ - في زمن الصحابة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ -.

ومن بعدهن، مثل: أم الدرداء وغيرها - رحمهن الله تعالى - في زمن التابعين.

وفي الزمن الذي وراء زمن التابعين كذلك، مثل ما نجده في أخت المزني التي تتلمذت للشافعي وغيرها - رحمهن الله تعالى -، وهلم جرًّا..

وهو وإن كان دورًا صغيرًا غير كبير إلا أنه موجود، الأمر الذي يفتقده قارئ هذا الكتاب (بهجة الناظرين) الذي يتحدث عن عصر كبير من حياة الفقه وسيرة الفقهاء.

فلا أدري هل لم يوجدن، أو وجدن ولكن هو لم يذكرهن؟!

فإنه لم يقابلني فيه ذكر امرأة واحدة فقيهة.

لو أن كل مشتغل بالعلم صنع مثل **رضي الدين الغزي** في بهجة الناظرين هذا - ترجم لشيوخه وأقرانه ومن قاربهم من معاصريه - لكانت عندنا صورة مكتملة لكل العصور، من وجهات نظر كثيرة متنوعة، واستطاع المؤرخ استخراج تاريخ عظيم للحركة العلمية وغيرها من هذه المادة الثرية بيسر.

ليس كل ما ورد في كتاب بهجة الناظرين - ومثله كل كتاب تأريخ بصواب يسلم به كله حتى يعارض بغيره.

رب محب نقل لنا صورة عينه وترك ما لا يحب أن ينقل، ورب مبغض نقل لنا صورة ما يبغض وترك ما ينبغي أن ينقل، وقلّ في الناس من يقدر على ضبط مشاعر الحب والكره ونحوهما وما يتبعهما من المدح والذم ونحوهما، ولسنا نتهم أحدًا لكن الاستزادة والمقارنة واجب على من تيسرت له أسبابها ولمن أراد أن يخرج بصورة كاملة عن أمر من الأمور.

في **(بهجة الناظرين)** مجموعة من العلماء الذين لم يترجمهم أحد سواه.

وهذا كما يبين لنا مكانة الكتاب والحاجة إليه.. يؤكد على ما قلناه في الفائدة السابقة من أن الحاجة قائمة - بل شديدة - إلى أن يقوم كل عالم وشيخ بكتابة سير وتراجم من حوله من العلماء.

فلعل من يترجمهم هو يتفرد بهم ولا يترجمهم سواه، مثل هذه التراجم التي تفرد بها **(بهجة الناظرين)**.

ابتدأ **رضي الدين الغزي** كتابه بترجمة الإمام **سراج الدين البلقيني**..

ثم بنى تراجم الكتاب على أساس من علاقة أولئك الشيوخ والطلاب بالبلقيني - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين -.

وفي هذا إشارة يدركها القارئ، وهي: أن العالم المؤثر يمتد نفعه وينتشر فلا يقف عند عُمر ولا يتقيد بوجود.

والسعيد من أثر عنه الخير وامتد عنه ونفع الله به في حياته وبعد مماته.

مما رأيت كثرة من أئمة أهل الفقه يحرصون عليه: **تدريس كتاب من كتب الفقه في سنة**، ينتهون منه قبل مرور السنة، وبعضهم ربما ختم شرح كتابين اثنين.

هذا بخلاف قراءة الكتب المطولة أو المتوسطة كل عدة أيام، يقرؤه في أيام يسيرة ثم يكرره.

ولعل ذلك من أجل دوام استحضار مسائل الفقه مجملة ومفصلة، فخذ نفسك بهذا.

واعلم أن الكتاب تخف مؤقته في المرة الثانية عن المرة الأولى، ثم هو في الثالثة أخف، وفي الرابعة أخف وأخف.. إلخ.

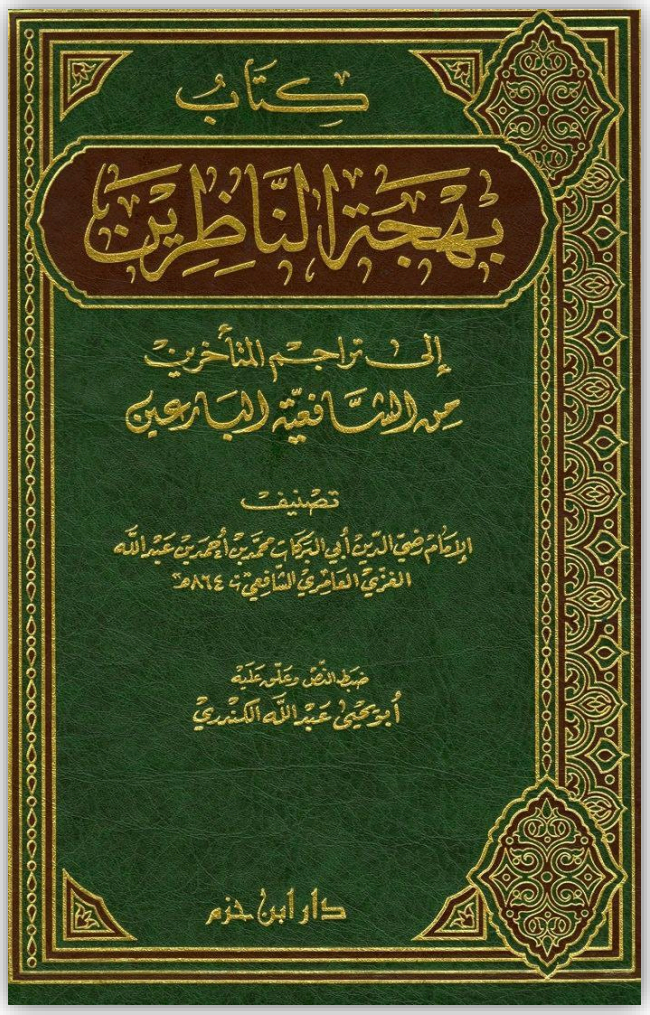

هذه مئة فائدة في هذا الموضوع الجليل: فوائد من تراجم فقهاء المذهب، استخلصتها من قراءة تراجم هؤلاء البارعين الذين ترجمهم **الشيخ رضي الدين الغزي** في هذا الكتاب المبارك.

ولنا - بمشيئة الله تعالى - عودة للكتابة في هذا الباب قريبًا مع فوائد كتاب آخر، رب يسر وأعن يا كريم.